obeikandi.com

# صورة الإسلام في الغرب في العصور الوسطى

نص من كتاب المستشرق: **W. Montgomery Watt** بعنوان: **The Influence of Islam on medieval Europe** [1].

## أ - الدين الإسلامي أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة:

كان مفهوم الأوروبيين في العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس، بحيث لم يكن في وسعهم أن يدركوا إمكان توفر صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم. وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية، قيل: إن الأولى زائفة بالضروة.

ويمكن أن نضرب مثلًا للنبرة العامة في الفكر الأوروبي بصدد هذه النقطة فقرة واردة في كتاب القديس توما الأكويني «Summa Contra Gentiles». والأكويني كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالًا ونبوغًا- فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية وتدعمها، نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق[2].

بالإضافة إلى «المتع الجسدية» التي يبيحها الإسلام والتي تجذب الناس إليه، وسذاجة الأدلة والحجج التي جاء بها محمد، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التاريخ، وتعاليمه الزائفة، وافتقاره إلى المعجزات التي تؤيد زعمه أنه نبي.

(1) نشرته جامعة أدنبرة سنة 1972 وهو مجموع محاضرات واط في «الكوليج دي فرانس» التي ألقاها سنة 1970م، والترجمة العربية للأستاذ حسين أحمد أمين. طبعة دار الشروق بمصر.

(2) يقصد توما الأكويني أن محمدًا ﷺ، قد انشق عن المسيحية وأسس فرقة جديدة، وأن الإسلام كما يقول بطرس المحترم: «هرطقة مسيحية» يعني فرقة مسيحية مبتدعة وضالة.

ثم وصف أتباعه الأُوَل بأنهم «رجال لا علم لهم بالإلهيات، يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى الحيوانات» (وربما كان هذا الوصف منه بسبب قبولهم لأي زعم دون مناقشة أو تمحيص). ثم يضيف قوله إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمدًا من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام. وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره، فإن النظرة المدققة توضح أنه حرَّف كل شواهد العهدين القديم والجديد».

وفي حين قنع توما الأكويني والكثيرون غيره من الكتاب بالقول بأن محمدًا خلط الحق بالباطل، تمادى آخرون فادعوا أنه «حيثما قال قولًا سليمًا دس فيه السم الكفيل بإفساده» وبالتالي فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعسل الذي إنما أضيف ليخفي السم تحته. أو على حد قول أحدهم: «لاحظ في الكتاب بأسره دهاءه الرائع المتمثل في أنه كلما أراد أن يقول شيئًا شريرًا، أو يعيد إلى الأذهان شيئًا شريرًا ذكره من قبل، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله».

وإنما كان قصدهم من هذا الحديث في معرض رسمهم لصورة الإسلام: بيان تناقض هذه الصورة مع الصورة المسيحية. فقد ارتأوا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذي لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية، وفي طياته شكل مطلق صالح لكل زمان ومكان. وقالوا إن التعاليم المسيحية تستهوي عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين، وأنها تجد في الشواهد التاريخية سندًا صادقًا يؤازرها.

**ب - إن الإسلام دين العنف والسيف:**

كنا قد ذكرنا عَرَضًا: أنه حتى العلماء من أمثال توما الأكويني كانوا يحسبون أن محمدًا إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية. كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب الدعوة إلى «السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرهم وقتلهم، واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور» (بدور دو الفونسو). بل لقد بلغ الأمر بأحد كبار المتحمسين المدافعين عن الحروب الصليبية، وهو Humbert of Romans إلى

حد قوله: «إن المسلمين شديدو الحماس لدينهم لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أي مخلوق يهاجم هذا الدين في أي إقليم يسيطرون عليه».

والواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وقد بينا في الفصل الأول أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التي يعترف الإسلام بها لم يخيروا بين الإسلام والسيف، وأن الذين خيروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم، ولم نسمع الكثير عن حدوث هذا خارج شبه جزيرة العرب. أما النشاط الحربي للمسلمين، وهو الذي يملأ خبره كتب التاريخ، فإنما أدى إلى توسع سياسي، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعي.

وفي تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف، ما يراد به الإيحاء بأنه مخالف تمامًا لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام، انتشر عن طريق الإقناع، ومن أن يصدق الرجال المشتركون في الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام، وأن دين خصومهم دين عنف.

وقد أدرك بعض الكتاب أن مفهوم دين السلام مثالي لا علاقة كبيرة بينه وبين الواقع وذهبوا إلى أن عدم مراعاة المسيحيين السيئين لهذا المثل الأعلى لا يشكل اعتراضًا مقبولًا على المسيحية. ويبدو أنهم فسروا هذا التناقض بذكرهم أن الغرض من الحروب الصليبية لم يكن إجبار العدو على اعتناق المسيحية بالقوة، وإنما كان – على حد تعبير توما الأكويني فيما بعد، منع الكفار من الوقوف حجر عثرة في سبيل العقيدة المسيحية. وربما كانوا يعنون أيضًا استرداد أراض يرون أنها حق المسيحيين.

**ج – أن الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان:**

نظر الأوروبيون في القرون الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات؛ خاصة الشهوة الجنسية. وكثيرًا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التي يمكن للرجل الزواج بهن اللهم إلا قدرته على الإنفاق. بل إن هناك من الكتاب من كان يعلم أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع نساء، وكتب مع ذلك

يقول إن الحد الأقصى هو سبع أو عشر!! وكثيرًا ما ترجموا آيات قرآنية توحي بمعنًى جنسيٍّ مُنفرٍ، والآيات بريئة من ذلك. بل لقد وجد واحد على الأقل من الكتاب آية قرآنية زعم أنها تبيح الزنى. ووجد آخرون متعة في مضاعفة التفاصيل الخاصة بالحياة الجنسية لدى المسلمين، وقيل إن أشكالًا حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسي بين الزوجين يمارسها المسلمون بكثرة ويحثون عليها. بل ذهبوا إلى أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسي. ورأى البعض ذروة الشذوذ الجنسية الإسلامية في التصوير القرآني للجنة، وتحدثوا طويلًا عن الحور العين اللواتي سيكن من نصيب المؤمنين فيها، ووجدوا في ذلك فضيحة أيما فضيحة. كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية، وإن كانوا كثيرًا ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة.

ولبعض تفاصيل هذه الصورة التي رسمها أوروبيو العصور الوسطى أساس من الواقع. فللمسلم أن يتزوج من أربع نساء، بالإضافة إلى التسري بمن ملكت يمينه، وله أن يطلق امرأته دون أن يذكر السبب. ومع ذلك فالزواج والطلاق تحكمهما إجراءات شرعية دقيقة، ولا يَتِمَّان بطريقة عفوية. أما عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية فثمة مجتمعات إسلامية شديدة التعفف، وقد تقتل الفتاة التي تلد مولودًا غير شرعي على يد أحد أفراد العائلة التي فضحتها بسلوكها. ويعاقب على الزنى بين متزوجين بالرجم (كما كان في الكتاب المقدس)، وإن كان توقيع العقوبة مشروطًا بشروط شرعية كثيرة تجعل من النادر حدوثه. فإن كان في الجنة كما وصفها القرآن حور عين أو أزواج مطهرة، فكثيرًا ما يذكر أن المتعة الكبرى هي رؤية وجه الله. وبالتالي فإن الصورة التي رسمت في العصور الوسطى للحياة الجنسية الإسلامية هي صورة زائفة في كثير من الوجوه.

كذلك رأى الأوروبيون المسلم مطلقًا العنان لشهوات أخرى. فالحياة الرغدة في أسبانيا وصقلية الإسلاميتين بدت في أعين العاجزين عن الاستمتاع بمثل هذه الكماليات حياة قائمة على إشباع الشهوات. وزعموا أن القرآن يعلم الناس أن ينقضوا

عهودهم متى كان في نقضها مصلحة لهم وأنه يذكر أن بوسع المرء أن يدخل الجنة دون أن يأتي بأعمال صالحة؛ ما دام قد نطق بالشهادة. وظنوا أيضًا أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر ليس إلا مبررًا لكسلهم وخوضهم الحياة على غير هدًى. وهنا أيضا تحوي صورة الإسلام مزيجًا من الحق والباطل، فالإسلام يهاجم الرهبنة، ولا يرى في العزوبة فضلًا كبيرًا. غير أنه في نفس الوقت يقر معظم الأشكال الأخرى للزهد. أما صوم رمضان ففيه مشقة عظيمة، ومع ذلك فلا تزال قطاعات كبيرة من سكان الدول التي يشكل المسلمون الغالبية فيها تلتزم به إلى يومنا هذا. ويوحي هذا المظهر من مظاهر الصورة الأوروبية عن الإسلام بأن العالم المسيحي يكبح جماح شهواته. فالمؤكد أن المثل المسيحي الأعلى هو الزواج من واحدة لمدى الحياة، بل وكان من الشائع الاعتقاد بأنه حتى في إطار الزوجية لا يمكن اعتبار الاتصال الجنسي خيرًا محضًا، إذ أن الهدف من القوة التناسلية هو إنجاب الأطفال لا اللذة. وسنذكر حالًا بعض الإيحاءات لهذه النقاط المثارة حول الشهوة الجنسية.

**د - أن محمدًا هو المسيح الدجال:**

لم يكتف بعض الدارسين الأوروبيين للإسلام بالزعم أن القرآن يحوي الكثير من الكذب، وأن محمدًا ليس بنبي، فقد تناول «بطرس المحترم» فكرة لبعض العلماء اللاهوت اليونانيين وهي: أن الإسلام هرطقة مسيحية[1]، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة. وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد، هو أنه حيث إن محمدًا ليس بنبي، وحيث إنه أسس مع ذلك دينًا جديدًا، فلا بد أنه ساهم إيجابيًّا في مساندة قوى الشر، ولا بد أنه كان إما أداة للشيطان أو عميلًا له. وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض.

(1) أول من ذكر هذه الفرية: (الإسلام هرطقة مسيحية) هو يوحنا الدمشقي في القرن الثاني للهجرة.